المبحث الأول

الأدب - الفن - الحرية

- 1 -

الأدب - بمفهومه الجوهرى الأصيل - هو التعبير الفنى الإبداعى عن موقف الإنسان ورؤيته لمشكلات الحياة وقضاياها، وتصويرها، وتلمس أساليب مواجهتها، والكشف عن الإمكانات التي تنطوى عليها الطبيعة الإنسانية، والأدب بهذا الاعتبار يقوم بدور إيجابي نشيط فى التعبير عن وجهة نظر الأديب المبدع فى العديد من الأمور، وتسجيل أحاسيسه ومشاعره إزاءها .. وهكذا يسهم الأدب بقدر كبير وحظ موفور فى الاتجاهات الفكرية، وترسيخ القيم السلوكية والأساليب الحضارية ونشرها بين الناس، وكلما كان الأديب مدركاً لمثالية الأدب، فاهماً لقيمته وأهميته، واعياً بمجتمعه، أميناً على القيم والمبادئ ، حريصاً على الحقيقة والجوهر، بعيداً عن الزيف والضلال، كان أدبه فى صالح الجموع الإنسانية التي تشاركه الحياة، وتتأثر به فى حياته وبعد وفاته"[1].

وقد اختلف معنى الأدب من عصر إلى عصر، وإن ظلت محاوره الإنسانية تدور فى إطار من الرفعة والعلو والتسامى، تبلورت جميعها فى وظائفه النبيلة، وهى "التهذيب والخُلق والتعليم" [2].

وهكذا تبدى لنا أن "الأدب فى أبسط تعريف، هو التعبير الجميل عن الخاطر النبيل ، والخاطر النبيل لن ينحط إلى إسفاف

---

(1) د. عبد الله حسين : مقال بعنوان : (أزمة الأدب وحرية الإبداع) ، صحيفة الأهرام : 2001/3/2.

(2) انظر: معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، ص16 وما بعدها.

مبتذل، لأن لكل إنسان مطامحه التي ترتفع به إلى السمو، والآثم حين يقارف الخطيئة لا يخلو من وخزات نفسية تعاوده، لأنه فى قرارة نفسه يعترف بجرمه ، والعربى القديم فى صحرائه الممتدة وقراه المتباعدة كان يرتفع بنفسه عن التبذل، فلديه مجموعة من الأخلاق الفاضلة تأمره بالنجدة والكرم والشجاعة والعفاف، ومن هنا لم نجد فى الشعر الجاهلى أثراً للغزل بالمذكر، لأن الطبيعة الفطرية للإنسان السوى تنأى به عن الانحدار، وقد كذب أبو نواس حين قال :

لو أنّ مرقّشاً حيّ تعلق قلبه ذكراً " (1)

والناظر فيما تبدعه النفوس وتخرجه للناس، يجد أن الإبداع نتاج القرائح، وجنى العقول، إذ هو عصارة ذهنها المتقد، عبر بصيرتها النافذة، وشفافيتها الثاقبة، هو قبس من أشتاتها المتناثرة، بفيوضاتها المتجذرة، فى عالمها الخبيء ، مخرجة رؤيتها هى، قبيحة كانت أو فاضلة، راقية سامية، أو عربيدة جاهلة، هى رؤية خاصة، تجسد هذا كله عبر بصيرتها هذه، وصيرورتها فى آن، الفاجرة منها والمؤمنة على السواء .

يقول ابن حزم الأندلسى: "ليس من الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصى، إلا نفارُ النفس وأنسها، فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرت نفسه من الرذائل والمعاصى، والشقى من أنست نفسه بالرذائل والمعاصى، ونفرت من الفضائل والطاعات، وطالب الشر متشبه بالشياطين، وطالب اللذات متشبه بالبهائم"(2).

(1) د. محمد رجب البيومى : مقال بعنوان: (ظاهرة الأدب المكشوف فى كتب التراث) مجلة الأدب الإسلامى، العدد الخامس، فبراير 1995، ص25.

(2) ابن حزم الأندلسى : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس، ط ثانية، تحقيق وتقديم د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، القاهرة، 1992، ص96.

وهكذا تبين تلك الأنفس عن عالمها، وتستكشفه خلال بيانها وتعبيراتها الدالة على هذا العالم، فالسامى يستمد من السمو، ونقيضه يستمد من الانحدار والتقوقع والهزيمة، هزيمة النفس واستلابها، واستهجانها لموروثات الجلال الأعلى ، دون الأدنى ، فالقيم تستمد من السماء، ولا يستمد منها إلا الراقى والأعلى والسامى، فى حين يأتى المسف من الإسفاف، والمنحدر من الانحدار .

غير أننا "نقف الآن أمام نظرتين مختلفتين للجسد، نظرة موروثة تقابل بين الجسد والروح، فالجسد يعنى المادة، والشهوة، والخطيئة ، والجهالة ، والظلمة ، والأرض ، والعدم ، والروح تعنى العكس ، فهى العقل ، والعفة، والنور ، والسماء، والخلود ."[1]

والجسد بوصفه حاملاً للذات الإنسانية قد حظى بشىء من الاهتمام عبر الثقافات والحضارات، فى موازنة بينه وبين الروح، إذ استطاع الفلاسفة أن يدلوا بدلائهم فى هذه المسافة المتخيلة بين العالمين، عالم المادة بما به من تجسيد وحضور، وعالم الروح وما به من غيبيات وتجلٍ، ولربما كان هذا العالم أكثر رقيًا وخيالاً. نتيه فيه بوجداننا، بين الرغبة والرهبة، بين التسامى والشهوة، بين الواقع والخيال، بينما نضل طريقنا أحيانًا فى عالم الحضور والشهادة، بما به من مكدرات الحياة الجاهلة ورعونتها.

والعلاقة بين الفن والأخلاق علاقة قديمة، قدم الإبداع ذاته، إذ هما صنوان، يتصارعان فى محراب واحد، فكما زخر العالم (قديمه وحديثه) بالمصلحين والكهنة ورجال الدين ، فقد زخر

(1) أحمد عبد المعطى حجازى مجلة إبداع (المقدمة)، العدد التاسع، القاهرة ، 1997، ص5

كذلك بأصحاب المجون والزندقة والتحلل والفجور، والخروج عما ألفته الفطرة والطبائع الإنسانية الراقية.

ومن ثم ، فإن الكلمة المبدعة ظلت تتقاذفها هاتان الرؤيتان، عبر عصورها جميعًا.

تقـــول الدكـــتورة أميرة حلمى: "ومما لا شك فيه أن الفن الخلاق، لابد له من الالتزام بقيم الحق والخير، ولكنه ليس دعوة ولا دعايـــة أو موعظـــة، فهناك فرق كبير بين الفنان والواعظ، ولهذا تدور جملة أسئلة حول هذه المشكلة.. كيف يرتبط الجمال الفنى بالخير الأخلاقى دون أن يتحول إلى وعظ أو إرشاد؟ وما هـــى صـــلة الفن بالأخلاق؟ ويعرف كل من اطلع على تاريخ الفلســـفة القديمة، أن أفلاطون هو أول من دعا إلى هذا الرأى، الذى يجعل الفن فى خدمة الحياة الاجتماعية والأخلاقية، بل لقد ذهـــب هـــذا الفيلسوف إلى ضرورة رقابة الدولة على كل ما يعرض على النشء من فنون، كما دعا إلى استبعاد كل الفنون الـــتي تخـــل باتزان النفوس، أو تشيع انحرافًا فى المجتمع"[1]، إذ "الفـــن لـــيس مظهرًا روحيًا أو ماديًا فحسب، وإنما هو مظهر اجتماعى أيضًا، يستمد وجوده من حاجة الناس إلى اجتماعهم، فهو استجابة تلقائية لمظاهر الوجود فى شكل جماعى"[2].

والحديـــث عـــن هذه العلاقة حديث ممتد، لا ينتهى بانتهاء الناس وأزمانهم، إنما تتناقله الألسن، وتتنازعه العقول والأفهام، فهـــذا ينتصـــف للفن، وذاك ينتصف للأخلاق، وآخر يوازن بينهما، فى معزوفة طويلة، تبلورت جميعها فى (نص واحد) هـــو

(1) فلســـفة الجمـــال المكنة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص66

(2) د عـــبد الفـــتاح الديـــدى فلسفة الجمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985 . ص21

إبـــداع البشـــرية عبر عصورها وأحقابها، القريبة والبعيدة على سواء.

يقـــول إلـــيوت: "حينما نقرأ العمل الفنى، يجب أن نرجئ العقـــيدة والشـــك، ويقـــول أيضًا إن هنـــاك لذة واضحة فى تمتعـــنا بالشـــعر كشـــعر، حيـــنما لا يشاطر القارئ الكاتب معتقداتـــه"[1].

كمـــا يضيف: وفى مكان آخر "ليس الشعر بديلاً للفلسفة، أمـــا اللاهـــوت أو الديـــن فله وظيفته الأساسية، وهى ليست فكرية، وإنما وظيفية، إن الشاعر يكتب الشعر، والغيبى يشتغل بالغيبـــية، والنحلة تصنع العسل، لا يستطيع المرء أن يقول: إن الواحد من هؤلاء يعتقد، فهو يعمل فقط"[2].

ثم يقـــول جـــيروم استوليتز: "الفن لأجل الفن" فالفنان ذو النزعـــة الجمالـــية "بمعزل عن الخير والشر" وهو يتذوق المتعة الانفعالـــية المـــثيرة للخـــيال فى الـــتجربة، وفى كل تجربة، أما الاعتبارات الأخلاقية فهى ببساطة خارجة عن الموضوع"[3].

بيـــنما يقـــول كروتشـــى: " إن استقلال الحقيقة الجمالية وانفصـــالها عن القيم العلمية الأخلاقية يؤكد أكثر من ظاهرة، فلـــو كانت القيم الأخلاقية تؤثر فى تقديرنا للعمل الفنى، لما قرأ المســـيحى المـــتدين كتاب الإغريقى الملحد، وبنفس الطريقة لو كانـــت القيم الاقتصادية تتدخل، لما قرأ الشيوعى كتابًا رأسماليًا أو العكس"[4].

---

(1) نقلا عن: د. عبد العزيز حمودة: علم الجمال والنقد الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص85.

(2) السابق والصفحة.

(3) النقد الفنى دراسة جمالية فلسفية ت. د. فؤاد ذكريا، طبعة ثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981.ص540

(4) نقلا عن السابق، ص84

ثم يضيف الدكتور عبد العزيز حمودة: "وهذه النقطة من أهم النقاط التي أثرت فى النقد الحديث، فلو كانت الحقيقة الجمالية أو العمل الفنى مرتبطًا بالغايات الأخلاقية والعملية، لكان تقبلى واستجابتى للعمل يرتبط أساسًا بمذهب الكاتب ومبدئه وطريقة حياته وقيمه، لو كان العمل الفنى من واجبه ومن مقاييس نجاحه قدرتـــه على دفعى لعمل شيء ما، لوجب أن أتفق مع الكاتب فـــيما يعتقد، إذ كيف يدفعنى إلى الصلاة ملحد؟ وكيف يحضنى على السلوك القويم من لا أخلاق له؟ وكيف يقودنى إلى سلوك اقتصادى معين من أختلف معه فى مذاهبى الاقتصادية؟ لو كان الارتـــباط موجودًا لأصبحت عقيدة الفنان وعقيدة القارئ، من أهـــم العوامـــل فى تقيـــيم العمل الفنى، وعليه "فإن الكوميديا الإلهـــية، والفردوس المفقود وقصائد "دون" الإلهية و"برمثيوس طليقا" سوف تبدو مختلفة عند القراء الذين يعتقدون، والذين لا يعتقدون فى عقائد وآراء مماثلة"[1].

وهكـــذا تـــتعالى الدعوات باستقلالية الفن، وعدم ارتباطه بالقيم الأخلاقية والدين، بل حتى بنفسية صاحبه ومبدعه .

ومن ثم، فإن هذا الموضوع، هو موضوع قديم حديث، إذ إنه ســـيظل ثمـــة قطبان متنافران أحيانًا، متلاقيان فى أحيان أخرى، وكأنه لا يكاد يلمس أحدهما الآخر، ما دام ثمة عقل مبدع، ولم يقتصـــر هـــذا على ثقافة بعينها، بل يعد هذا من سمات الأدب والإبداع الإنسانى جملة.

غير أن الأدب المكشوف تدور رحى معاركه بين الناس، حتى فى أكـــثر البيـــنات تحيزًا له، إذ يقول كولن ولسون: "لا تزال المعركة قائمة حتى فى الغرب بين الفن والأخلاق، وقيـــم الأدب

(1) نقلاً عن: السابق والصفحة.

والجنس ونشره، فمع الإباحية وحرية النشر المعهودة فى بلاد الغرب لا يلقى قبولاً على إطلاقه، بالإضافة إلى أن الهدف هو هدف مادى بحت، فأدب الجنس من هذا المنظور هو أدب للربح والمال"[1].

وإذا كان البعض يرى فى الأدب الجنسى شرًا، فربما رأى البعض الآخر فيه خيرًا أو أخلاقًا، إذ يعده البعض نوعًا من التنوير، ونوعًا من بيان الداء، حتى يكون الدواء، والعلاج، إذ يعتقد جيروم استوليتز "أن الفنان يكشف لنا عن وجه الشر، ولكنه لا يفعل ذلك إلا لكى يبين لنا مدى قبحه" [2].

إذ يرى أن التعبير عن الرذيلة وتبيانها، قد يؤدى إلى النفور منها واحتقارها، فيقول: "إذن لاستطعنا أن ندرك إلى أى حد يعد العمل أخلاقيًا بحق"[3].

وعلى هذا يرى، أن قصائد الشاعر الفرنسى بودلير" "أزهار الشر" Les fleurs du mal والتى تحفل بأوصاف السلوك الجنسى الشاذ، والتى حوكم بسببها سنة 1857، تحمل قيمًا أخلاقية، إذ يضيف:"لكن بعد ذلك اتضح أن الكتاب أسفر عن أخلاقية هائلة"[4].

غير أن ذلك إذا كان يصدق بمثال، أو بأمثلة كثيرة، فإنه لا يشكل قاعدة أو أساسًا عامًا يمكن أن يُعَوَّلَ عليه، إذ نعود إلى نية الكاتب عند تقديم أعماله، والكيفية التي يتم بها ذلك، وما يتوسل به من تقنيات، تصل بالمتلقى فى النهاية إلى الرفض أو

---

(1) مقال بعنوان : (الرواية ومعركة الأدب الجنسى)، ترجمة: أحمد عمر شاهين، مجلة إبداع ، العدد التاسع، القاهرة، ص74.

(2) النقد الفنى دراسة جمالية فلسفية: ص539،538

(3) المرجع السابق والصفحة .

(4) نفسه والصفحة .

القبول، بما يجرنا إلى استبطانات لا يمكن الجزم بها .

غـــير أنـــه سيظل الوقوف أمام ما يسفر عنه هذا اللون من الكـــتابة – عبر التعبير الحر الذى لا يعبأ بمفرداته السافرة التي يلقـــيها على الناس عارية من الحياء – هو كل ما يشغل بالنا، حـــتى لو أدى إلى أخلاقية كما يقول جيروم استوليتز، وإن كنا نتفق معه فيما يقول أحيانًا، إلا أننا لا نقر بما تصدمنا به مفردات عابثة، وعبارات خادشة، يمكن أن نجد ذات المعنى فى غيرها.

وهكـــذا "نرى الكتاب (البورنوجرافيين) يدافعون عن تلك الكتابات التي يطلقون عليها اسم الأدب .. يدافعون عنها بحجة واهية.. هى أنهم أمناء فى تصوير الحياة كما هى، ثم يعززون هذه الحجـــة بأخرى .. وهى أن الفن يجب أن يستقل عن الأخلاق، فالفن عندهم شيء .. والأخلاق شيء آخر" (1).

وربمـــا دعا هؤلاء إلى حرية الأدب والأديب، وعدم تكبيل الكلمة المبدعة، غير أن البعض قد اتخذ من الحرية بابًا إلى مبتغاه، فـــتجاوزها بمسافات ، مفرغًا كتاباته وكأنها شـــواظ تصـــدم حـــياء الناس، وتلطخ وجه الفضيلة، ولكن أية حرية هذه التي نتكلم عنها؟؟ "أهى حرية الشراد والجموح؟ كما يقول الدكتور عـــبد الله حسين، أم حرية البذاءة والإفساد؟ أم حرية المراهقين الكبار؟ كلا .. لا هذه، ولا تلك، ولا ما بينهما.. إنما هى الحرية البيضاء النقية التي لا تشوبها شائبة، ولا تعتريها ذرة من دنس.. إنهـــا حرية أهل الحق والصدق والإخلاص والوفاء والالتزام.. ومثل هذه الحرية لا يمكن أن تنحنى أو تنهزم مهما يكن جبروت الاستبداد ، وعسف الطغاة ، ولذلك فإنها تمد الأدب المخلـــص

(1) فتحى الإبيارى : الجنس والواقعية فى القصة: الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة (د ت)، ص39.

بإمكانات فريدة، وقدرات عجيبة على الإيحاء والتوجيه والتأثير والبقاء.. وهكذا عرف العالم - رغم أنف الاستبداد والطغيان - أدب فولتير، وجان جاك روسو ومونتسكيو، ودستويفسكى، وتولستوى، وتشيكوف، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبى، والبارودى، وعلى يوسف، وعبد الله النديم، وبيرم التونسى.."[1].

وقد يظن ظان أن الدين فى عداء مع الفن، وأن الأخير لا يخدم الأول، غير أن العصور الإنسانية تنفى ذلك، إذ كان الفن فى كل عصوره ميدانًا للدين، وذودًا عنه، بل إن كثيرًا منه قد نشأ وترعرع فى أحضانه، ومع ذلك كان ثمة أفكار ورؤى تطفو من آن إلى آن، وإن اتسمت بالنظرة الأحادية المغلقة، ولم تصل أبدًا إلى كونها ظاهرة، أو حكمًا قاطعًا يمثل رأيًا جماعيًا متحضرًا.

تقول الدكتورة أميرة حلمى: "ولقد تعرضت بعض الفنون لهجوم المحافظين والمتشددين، فوصف الغناء والرقص فى بعض المجتمعات بأنهما من الفنون التي لا تنطوى على احترام الوازع الدينى أو الأخلاق، لكن ما أبعد هذا الادعاء عن الحقيقة! فالواقع أن الفن قد ارتبط بالدين والأخلاق منذ أقدم العصور، ففى حياة البدائيين وفى كثير من شعائر الأديان لمسات من الإحساس الفنى وصور جمالية لا يمكن إنكارها، ومن أمثلة ذلك فن الرقص الذى نشأ عن طقوس البدائيين الدينية، أما فن المسرح، فقد تطور عن عبادة الإله ديونيوس إله الخمر فى اليونان، وتأثرت الفنون المختلفة فى البيئات الإسلامية بخصائص مستمدة من التعاليم الإسلامية، وارتقت الموسيقى الغربية والغناء داخل الكنائس فى أوربا، وتبين لنا مما تقدم أن الدين

(1) مقال بعنوان (أزمة الأدب وحرية الإبداع) صحيفة الأهرام 2001/3/2 م.

والأخـــلاق والفن كلها ظواهر لا تتعارض فيما بينها، بل هى ظواهـــر مرتبطة ببعضها، وواضح أيضًا أن الاعتراض على الفن باســـم الأخلاق أو الدين أو المنفعة العملية، إنما هو اعتراض لا يعتمد على أساس من التفسير العلمى لتلك الظواهر"[1].

وهكـــذا لا ينفصل الدين عن الفن، أو الأخلاق، ولكن أى فـــن، وأية أخلاق؟!! إنه الفن الذى يبنى ولا يهدم، والذى يعبر بالسامى والأعلى، على حساب الأدنى والمتدنى .

إنـــه الفن المتكامل، الذى لا ينظر إلى الوجود نظرة خاصة، تمثـــلها الشهوة الحيوانية وحدها، تلك الزاوية الضعيفة، زاوية الحيوانـــية والبهيمية الساذجة، دون أن يربطها بالسمو والعلو والرقى والرفعة، فى إطار من جمال الفن والخُلُق والإنسانية، جمال الكـــون والوجـــود والطبيعة والفطرة، هو جمال واحد ممتد لا ينفصل ولا يتوحش، ولا ينبو عن الطبيعة الإنسانية وسموقها، هو جمال الروح والطبع والنفس، ينظر لهذه الغريزة فى جمال وجلال فى آن، هـــنا لا إســـفاف ولا تدن ، بل رفعة وجمال واستعلاء، يتطلع إليها فى كمالها مع كمال الإنسانية وتحضرها، فيرتفع بها من دركات الغريزة إلى جلالها، فإذا وصل إلى تلك الغاية، سمت به النفس محلقة بين عوالمها وأكوانها.

إن وجه الخلاف هنا، كما كان فى عصور سابقة، هو الكيفية الـــتي يقـــدم بها الفن، والأمر إذن فى أدوات التعبير وأنساقها، وآليات الكتابة وتكنيكاتها، فلا صدام إذن بين الفن والدين، أو الفـــن والأخـــلاق، ما دامت النفوس ترتضيه وتقبل عليه، ولا تخجـــل من مصافحته أو عرضه أو تلقيه، فإذا دعت الحاجة إلى التعبير عن شىء من هذا يتطلبه السياق والموقـــف والحـــدث ،

(1) فلسفة الجمال: ص 70.

فلـيكن بالكـناية والرمز، وقد يؤدى المعنى أكثر من المباشرة، وذكـر الأشـياء كما هى، إذ يجعل مساحة للخيال والتصور والجمال. يسرح فيها القارئ بوجدانه، فيؤدى وظيفتين فى آن: التبليغ والجمال، جمال التصوير، وجمال اللغة، جمال الفن وجمال الأدب، هنا لا تعارض أو قطيعة، وإنما فن وأخلاق وجمال .

– 2 –

لقـد دار الكلام كثيرًا حول حرية الكاتب وحرية المتلقى، وهل هذه الحرية محددة بمعايير؟!! أم أنها حرية لا تحدها الحدود، ولا تقـف أمامها العوائق؟!! أهى حرية تفرضها النفس وتطلق عـنانها، فلا تكبح جماح شهوة التعبير فيها أو تقيدها، حتى لو كـان ثمـة تجاوز يصطدم بالآخرين ويختلف معهم، من حيث العقيدة أو السلطة أو الفكر، أو"الإيديولوجيا" بوجه عام ؟!.

وبداية نقول: هل الكاتب حر فيما يكتب؟ وهل نتاجه مهما كـان تجاوزه يعبر عن ذاته هو بعيدًا عن مجتمعه وطبقته؟ أم أن الأمر غير ذلك؟ والإجابة على هذا تكمن فى عناصر شتى، غير أنهـا لا تتفق فيما بينها. ولنفرغ من هذا كله إلى صيغة أخرى لذات السؤال، لمن يكتب الكاتب؟ هل يكتب لنفسه وحسب؟ أم يكتب للآخرين؟ أم أنه يكتب لنفسه والآخرين؟ على اعتبار الصدق الفنى والتجربة المعيشة.

مما لا شك فيه، أن الأديب أو الكاتب عندما يكتب فإنه يكتب لنفسه أولاً، ثم يكتب ثانيًا للجماعة التي يعيش بينها، إذ هو ذاتى النزعة فى المقام الأول، موضوعيُّها فى المقام الثانى، فإذا كان الأدب الذاتى – أو الذاتية فى الأدب – هو حديث النفس ومناجاتها، فإن الأدب الموضـوعى يـتعدى ذلك إلى الجموع، وإذا كان الأدب

الذاتـــى، هـــو أدب الـــذات المبدعة، وهذا لا شك فيه، أى إنه رومانسى النزعة والهوى، فهل الأدب الموضوعى يخلو من هذا؟.

والإجابـــة على هذا من جنس المعنى وأصله، بل تتلاقى هذه الإجابة ذاتها مع الشق الأول وتتآزر معه فى جلاء، فالموضوعى ذاتى أيضًا، خرج من ذات مبدعة، انفعلت وتأثرت به بداية، ثم تعداها إلى الجموع التي هو صورتها.

وهكـــذا فإن كل أدب هو أدب الذات التي أبدعته، غير أن تصـــنيفه يختلف تبعًا للطريقة التي تسرد بها هذه الذات، والمادة التي تقدمها.

السرد الذاتى إذن: هو السرد الذى يقدم العالم الداخلى أو النفسى للكاتب، هو أدب يهتم ببواطن الشخصية، إذ يتم سرد محتوى وعيها (ذكريات، أحلام، مشاعر، أوهام) وهذا ما يندرج تحت رواية (تيار الوعى) وهذا كله كتابة ذاتية، لأن ثمة عناصر مـــن السيرة الذاتية للكتاب تتسرب إلى بنية الرواية، لأن وعى كـــل شخصية يرتد إلى مصدر أصلى هو وعى الكاتب، ويقدم المحـــتوى الداخـــلى باســـتخدام تقنيات منها: حديث النفس (المونولوج الداخلى) – المناجاة.

كمـــا أن هناك السرد الذى يقدم شخصية تعانى من عقدة نفســـية (الســـراب) مثلاً، أو ذلك الذى يحلل أفكارًا شخصية (أعمال دستويفسكى) .

وبهذا المعنى تعد الرواية الرومانسية فرعًا منه، لأنها تهتم بالعالم الوجدانى والباطنى .

أمـــا السرد الموضوعى ، فهو السرد الذى يعتمد على تقديم الفعل الخارجى للشخصية وحركتها فى المحيط الاجتماعى، مثل السرد الواقعى .

ومن ثم فإن الاتجاهات الروائية الحديثة لا تفصل بين الاثنين إلا نادرًا.

وسواء أكان الأدب ذاتيًا أم موضوعيًا، فإنه يبين عن فكر الكاتب الذى يعيش أرق الالتزام والموقف الذى يفرضه عليه ضميره وخلقه، نحو نفسه أولاً، ومجتمعه ثانيًا.

إذ الكاتب كما يقول جان بول سارتر: "لا يتوجه إلى قارئ عالمى، بل إلى قارئ فى وطن خاص، فى موقف محدد – الحديث عن الحرية فى معناها التجريدى لا يجدى، لأنها لا تكتسب معناها الحق إلا فى موقف معين – الحرية فى معناها الإنسانى مقيدة، بها يتخلى المرء عما يضر بحرية الآخرين ، كل الأعمال الأدبية محتوية فى نفسها على صورة القارئ الذى كتبت له"(1).

بهذا لا تطغى حرية الكاتب على حرية من يكتب لهم، إذ هى حرية مشروطة ومقننة، عبر العرف الاجتماعى والتقاليد السائدة، والقيم الموروثة، حتى وهو يكتب لنفسه أو يعبر عنها.

"الحرية إذن مسئولية، والمبدع، بالتالى ، مسئول عن ممارسة حريته، لأن ما يكتبه المبدعون هو انعكاس لنفوسهم من الداخل، ويعبر عن محتواهم الثقافى والفكرى والدينى، ونظرتهم للحياة بما تمليه عليهم ميولهم ورغباتهم وتوجهاتهم، باختصار نتاج الأديب هو شخصيته، لذلك يتجه علماء النفس إلى تحليل شخصيات المبدعين الراحلين وتحديد سماتها من خلال تحليل كتاباتهم، على اعتبار أنها تمثلهم، فالإنسان السوى لا يقول إلا ما يعتقده"(2).

---

(1) ما الأدب؟ ترجمة د. محمد غنيمى هلال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1986، ص79.

(2) نوال مهنى مقال بعنوان (حرية الإبداع المشترى عليها) صحيفة الأهرام 2001/5/8

ومـــن هنا "فليس بخاف أن الأديب عندما يعبر عن أفكاره ومشاعره، فإنه لا يعبر عن تلك الأفكار والمشاعر فى عزلة عن الواقـــع الاجتماعى المحيط به، إنه لا يقدم للقارئ تلك الأفكار والمشـــاعر مجردة، بل يقدمها فى سياق، أو أحداث، أو مواقف، أو علامات اجتماعية"[1].

يقـــول الدكـــتور عـــبد الله حسين: "إذا كان بعض كتابنا المعاصرين يختارون الجانب المنحل من المجتمع ليقفوا إلى جواره، مدافعين عن أهدافه الممقوتة، وغاياته الشريرة، وأساليبه الحقيرة، فـــإن ذلـــك يشـــكل أزمة حقيقية لا شك فى ذلك.. أزمة من الضـــمير الأدبى والـــثقافى عـــند الكاتب، قبل أن تكون أزمة الافتئات على حرية الإبداع"[2].

ثم يضـــيف: "وإذا كان الإخلاص مطلوبًا فى كل أمر، فهو أشـــد مـــا يكون ضرورة للأدب والأدباء، فكلما كان الأديب صـــادقًا مع نفسه وربه، بصيرًا بالأمور، مخلصًا فى غايته، واعيًا بحقائق الحياة المغيبة، وسط أكوام الضلالات، ومتاهات الأهواء والانحـــرافات، ومزالق الشهوات والشبهات، كان على درجة بالغـــة مـــن الحساســـية الحمـــيدة التي ترقى به إلى قمة التعبير والتصوير والتأثير"[3].

ومـــن ثم فإن الأمر كله مرجعه إلى الضمير الأدبى للكاتب، وتقديـــره الواعى لما يبثه فى نفوس الناس، كما أن للمتلقى هو الآخر الدور الأكبر إزاء نتاج هذا الضمير وقبوله .

---

(1) يوسف ميخائيل أسعد: سيكولوجية الإبداع فى الفن والأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص41.

(2) مقال بعنوان: (أزمة الأدب وحرية الإبداع) صحيفة الأهرام 2001/3/2

(3) السابق والصفحة

وإذا كان الضمير الثقافى والأدبى قد يهتز أحيانًا لدى بعض الكتاب، نتيجة لتأثرهم (بأيديولوجيات) قد تصل بهم إلى درجة من التعصب والانحياز، فهنا يكون دور النقد، بوصفه موازيًا للإبداع وصاحب الكلمة الأخيرة، مادام نقدًا مجردًا من الغاية، لا نقدًا تسوَّد به صفحات الصحف والمجلات،بعيدًا عن الغايات الشريفة التي هى من مقتضيات النقد والكلمة الأمينة،دون تهاون أو تهويل أو مزايدة .

لقد التبس كثير من المعايير أمام البعض، ممن توهموا أنهم وحدهم أصحاب الكلمة، وأصحاب الرؤى الصحيحة دون غيرهم، وأن ما عداهم لا يرتقى إليهم، جهلاً وتخلفًا، فكانت أن اختلطت الأمور، إذ وصلت أحيانًا إلى حد المعارك والصراعات والتعصب للرأى، حتى لو كان رأيًا ساذجًا أو مسطحًا أو تافهاً.

لقد خلط البعض من كتابنا، أو بمعنى آخر مبدعينا، أو بمعنى ثالث ممن تحيزوا تحيزًا أعمى لكل ما هو وافد من الغرب، دون بيان الغث من السمين!! بين الحداثة والحضارة، معتقدين – بجهلهم – أن الحضارة أو الحداثة مرادفة للتحلل، وأن هذا التحلل هو معيار الحداثة والوجه الآخر للحضارة، آخذين من هذه الحضارة وتلك الحداثة الغربية الوجه القبيح دون الجوانب الأخرى، هم يأخذون منها وجه الشر وحده، وينفرون فى الوقت ذاته من وجوه الخير المتعددة الروافد والأصول، وإن كان الغربيون أنفسهم قد نفروا من تلك الجوانب، التي ظنها البعض دليلاً على الحرية والتطور والارتقاء، ومع هذا لا يشكل ذلك فى مجمله ظاهرة، إذ صنف معظمه تحت كتابات لم تكن أبدًا معيارًا على الآداب الغربية نفسها.

والسؤال اللغز هو : لماذا نربط دائمًا، أو بمعنى آخر : لماذا

يـــربط دائمًا بعض مثقفينا، أو ممن صنفوا أنفسهم هكذا – ربما طبقًا لمكانة بعضهم، وتصدر صورهم صفحات صحفنا ومجلاتنا – بين الحداثة والتحلل؟ أو بين حرية الأدب والإبداع، منحازين لهذه الزاوية وحدها ؟! أى أن حرية الكتابة والإبداع والأدب، هى عندهم مرتبطة بالجنس والتحلل، ويركزون دائمًا على تلك الناحية دون غيرها، ويدعون أن الحرية والحضارة والحداثة، هى أن يطلـــق العنان للأديب فى أن يقول ما يروق له، حتى لو جاء بفتات من الغثاثة والزيف والتفاهة والبهتان .

هـــل الحـــرية مقصورة على هذه الزاوية فحسب؟!! أم أن الحرية لها جوانب متعددة، أكثر إشراقًا وسموًا، كأن تكون حرية الـــرأى والتعبير عنه، أو حرية الكتابة فى مجالاتها المتعددة، وهى كثيرة ومتشعبة ؟!.

وهـــنا تتوالى أسئلة أخرى: أى وجه للحضارة والتحضر أو الحداثة فيما يعرض علينا أحيانًا من كتابات غثة فجة قبيحة، قد تسخر أحيانًا من قيمنا وتقاليدنا وأعرافنا، أو تعرض علينا صورًا من الغثاثات التي تدور حول الجنس، فى نهج تأباه النفس، وتصل بـــه إلى درجة من الاشمئزاز والنفور والغثيان، تلك النفس التي كرمـــت فى خصوصـــياتها،فلم تُـــبح هذه الخصوصية للمرضى والشواذ،يعبرون عنها كما هى،وينتهكون حرمتها، تحت دعاوى شائنة،هى أبعد كثيرًا عن الأدب والإبداع، دعواهم قائمة على أن هذا قد حفلت به الأعصر،وإن كان هذا حقًا،غير أنه لم يكن ظاهـــرة أو نهجًا يألفه الناس، وإنما كان فى أدراج الخاصة دون شيوع .

حتى لو كان فى كل عصر شيء من هذا، أيقتدى به لمجرد أنه كان؟ لماذا يقتدى بالسيئ والتافه على حساب القيم والأصيل؟!

إن زوايـــا التعبير وجوانبه متعددة الروافد والاتجاهات، فإذا جاء شيء من هذا فى سياقه فلماذا لا يعبر عنه تعبيرًا سامياً، غير مفـــتعل للإثـــارة، فإذا لجأنا إلى الكناية الرامزة، فعبرنا بالصور الخبيئة، قد يكون ذلك جميلاً دون كثير من صور مسفة، ولدينا الأمـــثلة فى كتبنا الراقية، هى أمثلة جامعة، مع سريانها فى مجال الجسد وشطحاته، لا تجد فيها لفظًا مسفًا أو من شأنه أن يخدش حياءً أو يجرح شعورًا.